

رد على نقد

القديم والجديد للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

—

إذا كانت الأشياء تبين بأضدادها فقد تبين معنى القديم الذي أردناه لما بيننا في المقال الماضي مراداً بالجديد إن قديم الإسلام الذي ذكرناه في أولى الكلمتين اللتين نقدها الأستاذ قارى هو القديم الذي نحفل ونفخر به والذي لا نرى سواء جديراً بالاستمسك به والدود عنه . لكن قديم الإسلام ليس مرادفاً من كل الوجوه لقديم المسلمين . فقديم المسلمين هو كل ما شمله تاريخهم مما يسر ويسوء ، ومما يطابق أو يخالف الإسلام . لو كان المسلمون معصومين من الخطأ ومتابعة الهدى ، أولو كانوا مع عدم عصمتهم لم يخطئوا إلا خطأ المجتهد ، لكان قديم المسلمين هو وقديم الإسلام سواء ، ولكن حال المسلمين اليوم شيئاً آخر غير ما هم فيه . لكن المسلمين بعد أن فزع الله البلاد على سلفهم الصالح وخلفوه فيها ففتنهم الدنيا كما فتنت من قبلهم ، وحاولوا أن يتحللوا من قيود دينهم ، وتهاونوا أولو الأمر في إقامة حدوده فزلت الأقدام بعد ثبوتها ، وتداولتهم الأيام حتى صاروا إلى ما هم عليه

ومن الإفك العظيم الذي يافكه الغرب أن ينسب ما هم فيه إلى دينهم الذي إليه ينتسبون . لو كان ما هم فيه نتيجة العمل بالإسلام ما كان هناك مفر من اتجاذهم حجة عليه . لكنهم صاروا إلى حاضرهم المخزى بتركهم العمل بالإسلام ، فهم حجة له سلبية كما أن سلفهم الصالح حجة له إيجابية ، وتمت بذلك حجة الله على الناس . سلفهم الذي نزل فيه الدين استمسك بالدين فدانت له الأرض فلم تطغه ولم تبطره ، وضرب للتاريخ المثل العمل الفرد لحكومة الله في الأرض كيف تكون . فكانت تجربة أجزاها الله في الأرض لا يقدر على إجرائها غيره ، تحققت بها دعوى الإسلام أنه دين الفطرة التي فطر الله عليها الناس ، لا يتحقق لهم كمال ولا سعادة إلا به ، أفراداً كانوا أو جماعات . وحسبك من

كمال الفرد به . تطور النفس الجاهلية إلى مثل نفس عمر وأبي بكر وعلى وعثمان ، ومن إليهم من السابقين الأولين ، وحسبك من كمال البيئة الإنسانية وسعادتها تطور البيئة الجاهلية به إلى البيئة الإسلامية أيام الرسول الكريم صلوات الله عليه وفترة مذكورة بعد أيام الرسول

ثم أجرى المسلمون أنفسهم لسوء حظهم التجربة الأخرى التي يتم بها إثبات أن ذلك التطور المعجز الذي تطوره النفس البشرية لما خالطها الإسلام ، كان حقائقية للإسلام لا لغيره . وآية ذلك أن يزول الأثر إذا زال المؤثر ، كما يجري في أي تجربة علمية . وقد كان ، فزال عن النفس كمالها ومن البيئة عزها لما انخسعت عن دينها ، وتمطل أثر الإسلام فيها

فتاريخ المسلمين إذن فيه الخير وفيه الشر ، فيه تحقيق الإسلام عملياً وفيه تعطيله . وإذا كان قديم المسلمين يشمل الاثنين بالطبع لأنه عين تاريخهم فإن قديم الدين لا يمكن أن يشترك مع قديم أهله إلا في ذلك الجزء الذي حققوا الإسلام فيه . فقديم الإسلام الذي تقصده والذي قصدناه بما كتبنا من قبل هو أولاً كتاب الله وسنة رسوله ، وهوثانياً ما يطابق الكتاب والسنة من تاريخ المسلمين وإذا فهمنا قديم الإسلام هذا الفهم وتم لنا تحديد هذا التحديد وجدنا أنفسنا أمام شيء يزول معه كل معنى للفرقة الزمنية بين الأمور ، فلا يكون هناك محل في الإسلام لفكرة القديم والجديد كما تفهم الآن . إن الإسلام دين الفطرة ، والفطرة عند التحقيق لا يتفاوت فيها في دائرة الحق قديم ولا جديد . إنما يكون التفاوت والتناقض بين الحق والباطل . فكل جديد يخالف قديم الإسلام بالمعنى الذي حددناه هو جديد باطل ، نصيبه من البطالان بقدر ما بينه وبين الإسلام من خلاف . وكل ما جدّ للإنسان من حق وقف عليه بعد جهل به فهو والحق الذي عرفه الإنسان من قبل سواء ، تشملهما الفطرة ، ويشملهما الإسلام الذي يشمل بتشريعه وروحه وكنفه جميع صور الحق وسننه في جميع مدارج الحياة ، في جميع مظاهر الكون ، ما عرف الإنسان منها وما سيعرف ، ما قدر له علمه في هذه الدار وما قدر له بعد هذه الدار .

وليس في الوجود دين ولا نظام جمع للإنسان الخير كله والحق

ما يشاءون ويشئون في نفوس صغارها وناشئها ما يشاءون ما داموا يسلكون إلى ذلك طريق التلميح والإيحاء أو ما داموا لا يهاجمون التوحيد صراحة والقرآن . فلما غر كبراً فيهم الضرور وظن أن الألوان قد آن لهاجة الدين مواجهة لا مداورة هبت الأمة كلها تذود حتى كادت تبطش به ، فلما انزوى عادت إلى نومتها الأولى كأن لم يبق هناك من حاجة إلى اليقظة والانتباه

وكان سلاح دعاة الغرب في مهاجمة الإسلام في صميم بلاده ونفوس أهله هو هذا الأدب الذي يسمونه بالجديد .

والأستاذ (قارى) يحدثنا أن الذين يسمون الآن بأصحاب المذهب الجديد كانوا في أول الحركة أو منذ ثلاثين سنة رجعيين يدعون إلى الرجوع في النمط الأدبي إلى العصر الجاهلي أيام كانت اللغة خالصة ، وكان أدبها خالياً من التكلف في النزول والمحسنات اللفظية . لكن كان ذلك كذلك فما أظن حركتهم تلك في الأدب كان لها داع ما ، لأن كل ما وصفها الأستاذ به وقال إنها تطلبه كان متحققاً بالفعل على يد حافظ وغيره إن لم يكن قبله

ويقول الأستاذ إن أنصارها قرأوا الشعر الأوربي اتفاقاً « فرأوا أن مبادئ رجعتهم هي مبادئ الأدب الأوربي الصحيح السليم ، وأن الأدب الأوربي يعينهم على تحقيق تلك الرجعية » ولستأ نذكر كيف يمكن أن يعين الأدب الأوربي على تحقيق تلك الرجعية التي وصفت . وإذا صح أن بعضهم كان كما قال ، فأكثرهم لم يكن كذلك أي لم يقرأ الشعر الأوربي اتفاقاً ولم ينصره لأنه يؤيد مبادئه الرجعية ، ولكنهم كانوا ممن درسوا الأدبين ، وأوحى إليهم الأدب الأوربي مبادئهم التي دعوا إليها خصوصاً ما سماه : « الرجوع إلى طريقة المتقنين في إظهار كل شاعر خصائص نفسه وفكره ، وأن يباح له القول أكثر مما كان يباح للمتأخرين » . ولست أدري ماذا كان محرماً على المتأخرين ، وأراد أصحاب الجديد في أول الأمر أن يباح لهم ، وإنما الذي أدريه أن مبادئهم ذلك قد خرج بهم عن الحد ، وأدى إلى هذا الأدب الفاجر الذي يستطيع الأستاذ أن يضع يده فيه على ما شاء ، والذي يستند عنه بأن هناك أجر منه في القديم

إن في القديم أجر منه من غير شك وأكثر منه أضعافاً

كله وحذره من الباطل كله إلا الإسلام . والإنسان يستطيع إلى حد كبير تمييز الحق من الباطل في دائرة المحسوس الذي يستطيع إخضاعه لتجاربه العلمية ، أما ما لا يستطيع إخضاعه لتجاربه مما يتعلق بحياة الإنسان الروحية فلا سبيل للوصول إلى الحق والخير فيه إلا بإرشاد الله فاطر الفطرة وهداياته . وقد فعل سبحانه ، فضلاً منه على عباده ورحمة بهم أن يهلكوا إذا تركوا وشأنهم فيما يتعلق بحياة الروح ، فإن للروح سننها التي سننها الله كما لغير الروح سننها ، ولا مناص للإنسان من اتباع سنن الله وإلا كان من المهلكين . فكان من رحمة الله بالإنسان أن مهد الله له سبيل النجاة والفلاح واطراد الرقي الروحي بالآديان التي أرسل بها رسله ترى حتى ختمها سبحانه وأتمها للإنسانية في الإسلام

والمعجب الغرب من أمر الإنسان في عصرنا هذا أنه يحرص على اتباع سنن الله في عالم المادة ولا يحرص على سننها في عالم الروح . هذا عجيب لأن الذي يقدر سنن الفطرة ويبحث عنها ليستمسك بها في ميدان ينتظر منه أن يقدرها ويبحث عنها ليستمسك بها في غيره من الميادين . فإذا كان فاطر الفطرة سبحانه قد أنزل للإنسان هداية مبنية على سننها في الميدان الذي لا يملك الإنسان إجراء التجارب العلمية فيه كان ذلك أدعى لاغتياب الإنسان بتلك الهداية من باب أولى . وكان الأقرب إلى العقل أن يحرص الإنسان عليها إن كان مؤمناً بها عن يقين ، فإن لم يكن كان الأولى والأقرب إلى العقل أن يسارع الإنسان إلى بحثها وخص مناعتها الدالة عليها ليصل فيها إلى حكم صحيح وقرار صريح . لكن الإنسان لا يفعل شيئاً من هذا . فلا المؤمن يحرص على الدين كما ينبغي ويدعو إليه كما ينبغي ، ولا الشاك يسرع إلى فحص الدين كما ينبغي ليصل فيه إلى قرار صحيح . وأغرب من هذا أن يسمح المؤمنون وهم كثير للشاكين وهم قليل في البيئة الإسلامية أن ينفروا شكهم وينشروه عن شمال وعين ، في نفوس النشء من بنات وبنين

إن البيئة الإسلامية تحسن الدفاع عن نفسها إذا هوجت في دينها صراحة ومواجهة من أمام ، لكنها لا تفقه أن الأمر يحتاج إلى دفاع حين يأتيها الخصم مداورة ويهاجمها في الإسلام بحركة التفاف : لقد تركت لدعاة الغرب الجبل على الغارب يقولون

كثيرة ؛ لكن التفاوت في فحش القول ، أظن الفضل فيه يرجع إلى القانون، والكثرة راجعة من غير شك إلى تراكم القرون وتعدد الأمم وكثرة الناس وعظم نسبة قائل الشعر فيهم ممن يحسنه ومن لا يحسنه . فليت شمرى إذا حسب أثر ذلك كله ماذا تكون النتيجة وماذا يبقى من دفاع الأستاذ؟ إنها نقطة طريفة، لكن مهما تكن نتيجتها فإنها لا قيمة لها في الموضوع . فالقديم الذي ندافع عنه والذي إليه قصدنا من قبل ليس هو القديم الزماني الذي ذهب إليه الأستاذ . ليس هو قديم المسلمين برهم وفاجرهم كما توهم الأستاذ خطأ، ولكنه قديم الإسلام بالمعنى الذي فصلناه . وإذن فنقدته الذي وجهه إلينا وبناء على المعنى الزماني للجدة والقدم فقد ذهب لا يتوجه إلينا منه شيء .

إن التفريق بين المذاهب والأعمال بمحدوثها وقدمها كما يفعل كثيرون هو غير معقول، إنه تفريق تافه لأنه مبني على شيء عارض هو الزمن يأتي ويعر من غير أن تكون له صلة بمحائث الأمور . إن قديم اليوم بمعناه الزماني هو جديد أمس قد مضى ، وجديد اليوم هو قديم غد سيكون . فالجدة والقدم شيء عارض متغير لا وزن له في قياس قيم الأشياء اللهم إلا المادى منها ، وليس في كلها يطرد معناه . أما الأمور المعنوية التي تتصل بحياة الإنسان الروحية وصميم إنسانيته فلا بد لقياسها والمفاضلة بينها من معيار آخر ثابت على الزمان هو معيار الحق والصدق والخير . وقد أزل الله الدين ليهدي الإنسان إلى ما لا يستطيع الاهتداء إليه من هذا ما دامت حياته ونجاته وإنسانيته متوقفة عليه . من أجل ذلك تركنا المعيار الزماني الذي لا يفي من الحق شيئاً ، وقررنا ما كنا نظن أنه بديهي واضح من أن المعيار الثابت للحق والخير يجب أن يلتبس لا في جديد الغرب ولكن في قديم الإسلام بأي في الإسلام كما أزلناه فاطر الفطرة على الإنسان الكامل والرسول الخاتم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه

لقد قررنا هذا الأصل من قبل ولا تزال تقرره . قررناه حين كتبنا نقدنا التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي وأخذنا على صاحبه فيما أخذنا نشره مجون الأدب الغربي فيما كان يلخص للهلل من روايات فاجرة كرواية الزنبقة الحمراء ، ونشره مجون الأدب العربي فيما كتب عن أبي نواس ووالبة ومن إليهما في حديث

الأرباء . وما هو ذا صاحبه يدعو في أحدث كتاب له إلى الأخذ بحضارة الغرب كلها خيرها وشرها حلوها ومهرها كأنما أراد أن يصدق ما قلنا في كلتنا الأولى التي انتقد الأستاذ (قارى) من أن « الذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام في أكثره » . فنحن حين صورنا الخلاف بين أنصار قديم الإسلام وجديد الغرب كما صورنا إنما كنا نصف واقعاً مشهوداً، والأستاذ (قارى) يصف من حركة الجديد تاريخاً غير مشهودٍ ، على قصر الفترة التي كانت منذ بدأ ، وصار إلى هذا الجديد الذي يغلب على الحركة الآن وغلب عليها من زمان — بالنسبة إلى عمرها — طويل والأستاذ (قارى) يجعل للأسلوب والطريقة واللغة مكاناً كبيراً في حركته التي وصف ، وإني أعرف أن الأسلوب واللغة والطريقة هي مدار الخلاف بين من يعرفون بأنصار الجديد وأنصار القديم كما أعرف للأسلوب والطريقة واللغة مكانها في الأدب . لكني لا أحلها مع ذلك المحل الأول ، وإنما أجعل لروح الأدب المقام الأول في الحكم عليه . وأنا في ذلك تابع غير مبتدع، تابع للقرآن مهتد بما سنه للناس

فلحكمة كبرى جعل الله معجزة دينه معجزة أدبية باقية على الدهر وجعل رسوله أفصح الناس . وليس أصغر ما في تلك الحكمة التنويه بالأدب والتنبيه إلى أن قوته الهائلة ينبني أن تكون عوناً للحق والخير على الشر والباطل في حياة الإنسان، فهذا تشريع منه سبحانه وهدى للناس في الأدب كان ينبني عليهم أن يتبعوه . ولقد اتبعوه بالفعل في عهد الرسول وفي أكثر عهد الخلفاء الراشدين، ثم جاء عمر بن أبي ربيعة الذي لو أدرك عهد عمر بن الخطاب لجلده ونفاه ولكف من غريب مجونه الذي فتح في الأدب باب الشر والمجون على الناس . وصلوات الله على رسول الله لقد نبه الناس لو كانوا ينتبهون: نبههم إلى أن الشيطان يثس أن يبسد في أرضهم ورضى أن يطاع فيما يحقرون من أعمالهم . وكان مما حقروا القول الماجن ما داموا لا يرتكبون بالفعل ما يفترون فيه . وظن ابن أبي ربيعة أنه إذا قال ولم يأت شيئاً بما قال فليس عليه عند الله وزر، ونسى حديث الرسول الذي أنبأ فيه الناس أن الله قد تجاوز لهم عن حديث النفس ما لم تعمل أو تكلم، والحديث الذي نبه فيه صلوات الله عليه

واستعملنا لفظ دين بهذا المعنى استعمال مسمى صحيح . فالدين في الأصل معناه الخضوع ومن أخص خصائصه العبادات ، وقد جعل الله سبحانه طاعة الناس للشيطان عبادة . (لشيطان في قوله (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان) . نسلككم عدو مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) . وأوضح أن الناس لم يعبدوا الشيطان عبادة سجود ولكن يكفي من عبادتهم إياه أنهم لم يعبده فأنزلهم عن سبيل الله . كذلك قد جعل الله اتباع الإنسان مسمى نفسه عبادة للهوى واتخاذاً إياه إلهاً من دون الله (الإنسان من اتخذ إلهه هواه أفانت تكون عليه وكيلاً) (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) . فأساس الدين اتباع الدين والخضوع لله طوعاً وماللاً . فإن خيار فيه . فإذا غلب الإنسان على دينه شيئاً آخر يدين له . فالدعوة من قلبه فذلك الشيء هو في الواقع دين له بدلاً من دينه الذي ينتسب بالاسم إليه ؛ وإذن فتحن لم نقرب ولم نخرج عن حدود الله ولا عن الاستعمال القرآني حين أطلقنا لفظ الدين على كل ما يمر في قلب المسلم محل دينه . ونحن لم نعلم دعاة جديد الغرب . قلنا إن جديدهم في الأدب ليس مقصوداً على الأسلوب والطريقة . ولكنه في صميمه إحلال دين مكان دين ما دام منحى ذلك الاتجاه . الخامس المثل العليا واقتباسها من الغرب لا من الاسلام ولا من القرآن

محمد أحمد الغمراوي

الناس أن من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . ووقع ابن أبي ربيعة في الحرجين واحتمل الوزرين كليهما فوصف حديث نفسه كلاماً تبعه فيه المرجى ومن لف لفة فانحرفوا بالأدب العربي عن الطريق الذي اختطه له القرآن إلى الطريق الذي تنهأ الشيطان لينفذ منه إلى النفس السلية يفسدها قليلاً بعد قليل وجيلاً بعد جيل

فالأدب العربي ككل أدب إنساني يجب أن يحكم عليه أول ما يحكم لا بأسلوبه ولا بطريقته ولا بلفظه . ولكن قبل كل شيء بأثره في النفس أي بأثره في حياة الفرد وفي حياة المجموع . فإن كان أثره صالحاً يعين النفس على رقيها ويهديها إلى ربها فهو أدب صالح كريم ، وعندئذ تكون بلاغته وما يمكن أن يتصف به من سمات أخرى حسنات له توضع في ميزانه . أما إذا كان سبب الأثر يثير في النفس شهواتها ويصرفها عن هداها فهو أدب فاسد غير كريم مهما ملك صاحبه من عتات اللغة ومهما استاز في الأسلوب ، بل مميزاته في اللغة وفي الأسلوب تكون عندئذ من سيئاته لأنها تجعله أقدر على إفساد نفس الإنسان . من أجل ذلك جعلنا الأدب فيما كتبنا قسمين : قرآنياً وغير قرآني ، أو أخلاقياً وغير أخلاق ، حسب أثره في النفوس لا فرق في ذلك بين القديم منه والجديد

والأدب الجديد كان له أسوأ الأثر في النفس السلية خصوصاً النفس التي لا تعرف من دينها ما تستطيع أن تدفع به عادة ذلك الأدب على مكان الدين منها ليفتنها بجديد الغرب عن قديم الاسلام . ولقد قلنا من أجل ذلك إن المسألة بين القديم والجديد هي في صميمها مسألة اختيار بين دين ودين ، فظن الأستاذ أننا نريد أن الجديد يريد أن يحل المسيحية محل الاسلام ، وليس كذلك . إن المهم ليس هو ذات ما يتخذ بدلاً من الاسلام ، ولكن هو مجرد الانصراف عن الاسلام . وماذا يهم إذا انصرف المسلم عن الاسلام أي شيء اتخذ أو على ماذا أقبل ؟ إنه إذا استدبر الإسلام لا بد مستقبل غيره ؛ وإذا أحله من نفسه المحل الثاني فهو لا بد محل غيره المحل الأول ؛ وإذا عصاه فهو لا بد مطيع سواء . هذا الذي يستقبل ويكبر ويطيع بدلاً من الإسلام هو الدين الذي اتخذ أو يتخذه المسلم المقتول بالغرب بدلاً من دينه . وليس يهم أدين هو معروف في الأديان أم هو بين الأهواء أم وهم من الأهوام

هذه الكتب
كتب على يد
لعل أناس
تسوية بماذا أرسلت لعدا
الأعداء مع حمى ملوك إلى
جلالهم بوردن ص ب ٢٠٥٥